هل نحن أحياء أم موتى

قروي عبد المطلب

كتوباتي
kotobati

هل نحن أحياء أم موتى

بقلم:

قروي عبد المطلب

الكتاب: هل نحن أحياء أم موتى.
النوع: نصوص.
تأليف: قروي عبد المطلب.
تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي: مكتبة كتوباتي.
النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي.

www.kotobati.com
kotobati@gmail.com

إصدار 2021.
جميع الحقوق محفوظة.

الإهداء:

إلى كل من داعيه الفضول المعرفي والفلسفي، إلى كل من شق الطريق مبحرا في حب التفكير، إلى كل من جعل من الفلسفة اسلوب حياة، إلى عشاق رائحة الكتب، إلى عشاق العزلة، الذين غذائهم الوحيد عقل وكتاب، إلى كل هولاء أهدي عملي المتواضع.

"إليكما يا قرة العين ":" أبي الغالي" بطلي الاوحد واستقامة ظهري

"امي الغالية" السند الحنون

إليكم عائلتي الثانية احمد هديل محمد سارة وايوب وسلمى وآية

إلى كل الاحبة، هديتي لكم على شكل نصيحة، توارثوا العلم حبا والتفلسف متنفسا

المقدمة

بينما أنت الآن تظن نفسك أتعس إنسان في الكون و أن لا حظ لك من الحياة سوى المشاكل و الخيبات .. هناك من سيسطو بعد قليل على بيت إحدى العائلات المستورة ، هناك من هو ممسك الآن بقارورة خمر ، أحدهم انتحر قبل دقائق و إحداهن الآن ترقص في أحد الملاهي ، هناك من يبيت في أحضان زوجته و والديه في دار العجزة ، هناك من يخطط لقتل أحدهم بعد قليل ، هناك من حُكِم عليه بالمؤبد قبل ساعة ، هناك أم تتمنى مجرد لقيمات تسكت بها أبنائها الذين يتضورون جوعا

أمور مرعبة تحدث الآن .. صحيح هناك الأفضل منك لكن أنت أيضا أفضل من الكثيرين .. فإطمئن ! دعونا نعود للوراء بين الاسطر قليلا إلى دار العجزة!!!، اين تبدأ قصتنا.....

هل نحن موتى أم أحياء

وراء تلك الجبال الشاهقة توجد مدينة غامضة يفضل أن يبقى اسمها مجهول ، حيث يتواجد ذلك المكان المنسي والمزدحم بكبار السن والمصابين بالشيخوخة ، والذين تم خذلهم وتركهم هناك . يقضون الفترة المتبقية من حياتهم مع من يشابهم بالألم والخذلان ، المكان أشبه بمكب الخردوات المتهالكة ! ، ورغم تدخل المشرفة المسؤولة عن هذه الدار وقرارها بأنها تطالب الجهات المختصّة من اجل نقل كبار السن للمدينة وبعد إلحاح متكرر من الدكاترة والممرضين بإنهم يحتاجون لمكان مثالي لتقديم العناية والراحة المطلوبة لسلامة كبار السن إلا إن المديرة كل مرة ترفض الفكرة ويكون ردها الذي حفظه الأطباء والممرضين عن ظهر قلب : نحن لانريد ازعاج الحكومة والدولة معانا ،هم عندهم شغل وأشياء اخرى أهم ! ، ويوجد الأعذار الكثيرة والكذبات التي لاتنتهي ، لأجل نهب كل الأموال والمؤونات التي تصل لهذا المكان وتجعلها من نصيبها هي وأفراد بيتها ولجيبها الخاص دون اي مباردة واحدة تساعد بترميم الجدران والأرضية المصدّعة ، لكن هذا كله يهون عندما نسمع حكايات وقصص كبار السن الذين هناك ، صار بيتهم وملجأهم الوحيد وتوحّدت أيديهم وقلوبهم على الحب

والمودة والأخوّة رغم إن الأغلبية منهم مصابين بالزهايمر وذاكرتهم ماكانت لتسعفهم لكي يتذكروا حتى ماذا أكلوا قبل لحظات ، وبعضهم الآخر نشفت عيونهم من دموع الخذلان .. تحسر وذكريات مؤلمة يسترجعون فيها لحظاتهم مع عوائلهم قبل ان يفاجيُوهم ويتركوهم هنا بين يوم وليلة ! ، وبعضهم فقد كل مايملك ، وكان السبب بأخذ روحهم وإحساسهم تجاه أهاليهم واصدقائهم وكل الذي بقى لهم مجرد جسد وينتظر موعد وفاته.!

رغم إني ذكرت هذا الكلام الحسّاس الذي لعب دور كبير بتحريك قلوبكم ومشاعركم ، إلا إن هذا الشيء الذي يحكى لكم عن هذه الدار سر لا يستطيع الجميع يراه أو حتى يسمع عنه و سيبقى دفين يتناقلونه بهمس كبار السن بينهم وبسبب إنه لن يسمع لهم حرف أو حتى يلقي لهم أي أهمية ، ستظل اصواتهم للأبد منخفضة ولا يسمعها إلا الذي يشعر بهم وبمعاناتهم وعاش مثلهم!

بدأت الحكاية على لسان احد الممرضات التي كانت في يوم طبيعي وعادي مثل اي يوم اخر ، منهمكة في شغلها في غرفة الممرضين ،فجأة انفتح الباب إذ بتلك العجوز تدخل قائلة : يوجد شخص يخدش جدار غرفتي ارجوك يا حضرة الممرضة ساعديني انا لا استطيع النوم من كثرة الضجيج، وفي تلك اللحظة

قامت الممرضة باخذها للغرفة واعطتها مسكن لكي يساعدها في النوم ،ثم غادرت الغرفة تاركة وراءها تلك العجوزة تردد بهلع تلك الجملة اكثر من مرة: الدم في كل مكان!، الاظافر تسقط وتتخلع!، واخذت تكررها حتى نامت نوما عميقا. عادت الممرضة للغرفة وهي تحدث نفسها: بدأت تظهر عليها علامات الزهايمر، كان الله في عونها وعوننا.....، من جهة ثانية، نذهب لغرفة متواجدة بالطابق الثاني في لحظة انفتاح بابها دخلت ممرضة معلنة توزيع الادوية ، وأثناء تحضيرها الدواء لذلك المسن ، التفتت وبادرت له بابتسامة ثم تلاشت بعدما لاحظت على وجهه التعب والبأس وكان ينظر الى الجدار الذي يقابله بالضبط لنقطة معينة وهو لا يستطيع ان يرمش حتى، توجهت له معها الادوية اعطته اياها فخرجت من الغرفة ولم تعطي الموضوع اي اهمية....

(والان سوف ننتقل ويكمل لنا احد كبار السن الحكاية على لسانه وهو الذي كان اكثرهم هدوء وهو ايضا من القلة القليلة الذين لم تتداهمهم الامراض ولا يعاني اي اعراض مزمنة....)

مستلقي على سريري اراجع وقتي الذي عشته ومضى على وجودي هنا، سنتين! كم هو الوقت سريع. لازلت اتذكر اول يوم جئت فيه الى هنا بكامل تفاصيله، اتذكر لما وقفت عند

الباب الخارجي اتأمل المكان الذي سيكون ملجئي منذ ان تخطيت الخطوة الاولى للداخل، وقبل ان ادخل التفت لابنتي وجدتها منزلة عيونها تنظر للارض، اقتربت نحوها ورفعت بيدي فكها ومسحت دمعتها التي نزلت فجأة وانا اردد بابتسامة: اتركيني هذه المرة اساعدك يا ابنتي، رغم انني اعتدت منك تفعلين كل شي لي، لكن هذه المرة حياتك ومستقبلك اهم، كانت ستتكلم لكني وضعت اصبعي على فمها وقلت: .....

لا تعتذرين ابدا، انا من اختار ان ياتي الى هذا المكان بنفسي، حتى و لو ان زوجك المسؤول عن هذا وكان ظالم وانانى بمعنى الكلمة إلا أنني راض بمعيشتي ومواصلة بقية حياتي هنا، اهم شيء ان تكوني بخير وسعيدة، وابيك عليك نسيانه بعد كل الايام المرة التي عشناها قبل زواجك و ابقي بجانب زوجك يعزك ويفرش لك الارض حرير من تحتك ولا ينقصك شيء، وصدقيني سعادتي في سعادتك ، وطلب صغير قبل ان ادخل هنا و اودعك، اتمنى ان لا تحرميني من رؤية وجهك البشوش وضحكتك التي يتردد صوتها و صداها في اذني و يلين قلبي كل مرة حين تضحكين فيها، سامحيني يا ابنتي على الايام التي لم اكن فيها الاب الذي تفتخرين فيه.

سامحيني

وكل الذي حدث بعد ذلك اليوم اني لم ارى وجهها او حتى رسالة منها تطمأن قلبي عنها ابدا..، صوت رعد من شباك غرفتي قطع عليا ذلك المشهد القديم ، واجبرني ان امسح الدمعة التي نزلت من خدي، نهضت من مكاني توجهت لمكتبي الصغير المطل على الشرفة و شغلت الانارة الجانبية وتذكرت: الوقت المناسب لكي اكتب نص جديد لمعشوقتي صاحبة الرداء الابيض والوجه الملائكي، اخذت القلم، اعطتني هي اياه بنفسها وبدأت اكتب..، اقترب منتصف الليل وسمعت عربة الادوية قادمة باتجاه الممر المصاحب لغرفتي، في تلك اللحظة تركت كل شيء واتجهت الى صنبور المياه وبللت يداي وبدأت احسن شعري المبعثر بسرعة، ثم عدت الى الطاولة وتعطرت من العطر الذي اهدتني اياه و اخفيته على عجلة من امري. تظاهرت باني مشغول بالكتابة حتى تدخل الغرفة وتناديني بصوتها، لانني تعودت سماع اسمي منها يجعل الفراشات ترقص... دقيقة، دقيقتين، ثلاث، ولا يوجد اي صوت وهي لم تأتي، تسللت نحو الباب فسمعتها تتكلم في الغرفة الامامية، عدت للطاولة بسرعة قبل ان تدخل

فجأة وتراني بهذا المنظر!، اثناء التفاتي نحو المكتب، كوب الماء الذي وضعته فوق الطاولة اذ به يتحرك!!. نعم يتحرك حتى يصل لطرف الطاولة ويسقط وينكسر تجمدت بمكاني اناظره حتى دخلت الممرضة وبادرتني بجملة وقالت:.....

هل انت بخير؟، ماذا يحدث هنا هل كل شي بخير ؟... اخبرتها بتوتر: ءءاااا لا شي يا حبيبتي ءءاا اقصد يا ممرضة سارة، فعلا لما رأيتك هرب الخوف من داخلي، ابتسمت بحياء وقالت: حتى هذه اللحظة تستطيع ان تستغلها لصالحك، لقد تعودت عليك وعلى افعالك ومقالبك وعلى الاشعار والاشياء الحلوة التي تكتبها لي، رغم ان خطيبي احمد لو يعلم ماذا يحدث سيقتلنا ثم ضحكت، نظرت الى عيونها بمزح و قلت: لا تقلق سنهرب نحن لمكان بعيد لن يعرفنا احد ابدا. اقتربت مني وابتسامتها العادية التي لا يمكن ان انساها

وقالت: حاضر، سنهرب معا، لكن الان ابتعد عن الزجاج المتناثر حتى احضر المكنسة واعود، وفعلا غادرت الغرفة فلحقتها وكنت اتأملها لما مشت في الممر واختفت في نهايته، نظرت يميني ويساري لم يكن اي احد ، لا يوجد شي يذكر، المهندس محمد تجلس بجنبه الممرضة سلمى تعتني به مثل كل مرة

التي يصحى فيها من الكوابيس المزعجة وبسببها يركض بالممرات كالمجنون، و عاملة النظافة تمسح الارضية منهمكة في شغلها و باقي المسنين في غرفهم استعدادا لوقت النوم الذي سيكون بعد 10 دقائق من الان ..... وقبل أن ادخل لمحت شخص يجلس على الكرسي في الغرفة المجاورة وينظر بدون حركة، وبشكل مفاجئ التفت لي ثم ابتسم، استيقظت على صوت الممرضة سارة وهي تقول وتردد: اين ذهب عقلك، انتبه وركز وقليل، فنظرت الى الكرسي لكن لم اجد احد، اااااه منك يا زوجتي العزيزة، لا يزال طيفك يزورني كل يوم وكل ليلة، ولا ازال اراك باجمل حلة واروع شكل قبل ان ياخذك مني، لكن كل الذي اقوله واحسن شيء حدث هو ما عوضتني به الايام، الممرضة سارة، كانت ملامحها قريبة من المرحومة زوجتي، واصبحت اراها واتأملها كلما اشتقت لزوجتي، حركت رأسي بشكل عشوائي كيف اوقف التفكير فجأة فرقعت سارة اصبعها امامي وقالت: ارى انك لست بخير ماذا بك؟ اخبرني، فقلت: كل شي بخير دعيني انظف الزجاج قبل ان ينجرح احدهم، غادرت ملاك الرحمة من غرفتي ، بداتلها الابتسامة واغلقت الباب وراءها. توجهت للشباك وجلست تحته اتأمل المطر والبرق الذي يصاحبه، شردت مرة اخرى لحظتها ضرب البرق الارض رأيتها !!

كانت زوجتي واقفة بجانب سيارة الممرضة سارة بملامح أشبه بجثة وبثياب متسخة وحالتها يرثى لها ناظرة الي بغضب شديد ، هذا المشهد اراه في ثواني وإختفى هذا ما جعلني أتراجع بخطواتي للخلف وصوت نبضات قلبي تتسارع من شدة الخوف ! ، أقفلت الستارة وأطفأت الانارة الصغيرة على مكتبي وأختبأت تحت فراشي أشبه بطفل صغير ونمت ..

طرق على الباب افاقني من حلم مفجع كنت أحلمه ، حلمت بأنني جالس على سريري بعد ان افقت من حلم آخر ولا اذكر ماذا الذي حدث فيه ، كل الذي اذكره انني استيقظت مفجوع وخائف واعتقد انني صرخت أثر دخول ممرضة سارة غرفتي فقالت: ماذا بك ما الذي يحدث يا أدهم بدأت اخاف! ، حاولت ان اتكلم لكن الكلام لن يخرج من داخلي! ، فجأة عندما كانت سارة تحاول تهدئتي ظهرت من وراءها واقتربت منها واصبحوا كانسان واحد ذو رأسين ، فجأة سقط رأس سارة واصبح بين ايدي زوجتي ..... نهضت من هذا الحلم وكنت سعيدًا لما استيقظت و وجدت انا كل شيء حلم وقفت من مكاني ذهبت وفتحت الباب وكان الدكتور بجولته الصباحية المعتادة المحيطة بالمخاطر ، وقال: صباح الخير يا رجل، لم نعتد منك النوم لهذا

الوقت المتأخر ، اصبحت كسول في اخر اليومين كل شيء بخير صحيح ؟ ، إبتسامة باهتة اول كلام صدر مني قلت: لما دخلت انا استيقظت ، ساغسل وجهي انت اذهب للغرفة الاخرى ، سالحق بك لكي آخذ الأدوية منك ، وافق ثم غادر بدون ان ينطق حرف .. مر اليوم بدون أحداث وتاريخ ومر العام الذي لم ارى ملاكي سارة مثل ماعهدتها يومياً بابتسامتها الخلابة ومساعدتها لنا كلنا وحتى حكايتها ومزيحها معي وهذه ليست من عاداتها! ، لكن عسى هذا الغياب خير وكما يقولوا الغائب عذره معه!!..

إحتل الليل وتسيّد القمر بكامل هيجانه وبدا ينور المكان ، وقبل فترة جولة الأدوية المعتادة توجهت لغرفتي بعد ماقضيت باقي يومي مع صديقي المهندس ورغم ان الزهايمر تمكّن منه إلا انني استمتع بجلوسي معه والتحدث إليه حتى لو لم يكن يسمعني وكل الذي كان يردده اسم ولده المتوفي ويبتسم بوجهي ثم يقول انه ذهب ليدرس في اوروبا وسوف يأتي ويأخذني من هذا المكان قريبا ، دخلت الغرفة واقفلت الباب من وراءي ، دقائق بدلت فيها ملابسي وينفتح الباب دون ان يطرق ويستأذن ! ، من هذا الشخص الوقح .. إلتزمت الصمت لما رأيتها تبدلت ملامحي

للفرح واول شيء قلته : اين كنت اليوم يا سارة ليس من عاداتك ان لن تزورينا وتسلمين علينا ! ، اقتربت إلي ثم ابتسمت وذكرت : ءءاا لقد غفوت وتغلب عليا النوم و لم أستطع مقاومته و استيقظت بوقت متأخر ، وأثناء ماكانت تتكلم بأشياء لم استطع أن افهمها بحكم انني سرحان في تأملها كعادتي ، لكن بلحظة تغيرت ملامحها وتلاشت ثم غادرت الغرفة دون ان تنطق بحرف ! ، حاولت أن ألحقها وأحاول فهم منها لماذا فعلت الحركة هذه ، هل اكون انا السبب دون ان أشعر ! ، افف منك يا أدهم ، و إكتفيت بتأمل خيالها حتى اختفت بنهاية الممر ، وأول ما فتح الباب وسوف ادخل الغرفة إنفجعت من المنظر الذي وجدته ! ، كل الذي فعلته تراجعت خطوات عشوائية للخلف وصرت أتخبط بكل شيء يلمسه جسمي !! ، كيف هذا ! ، مستحيل !! ، كيف سارة موجودة الآن تدفع عربة الأدوية امامي رغم انني رأيتها تمشي لجهة الممر المعاكس ! ، توجهت ناحيتي وحاولت تهدئتي وتردد : ماذا بك يا أدهم ، اهدئ أنا سارة، ماذا حدث لك !! ، يالله ماذا يحدث معي ! ، معقول كل هذا حلم !! ، وطردت هذه الفكرة من عقلي الباطني أول مالمستني من كتفي من أجل دعمي و تهدئتي وشعرت بيدها عرفت انها حقيقة ، حاولت التكلم وأعلمها على الذي رأيته قبل لحظات لكنني قررت ان اصمت

لعدة أسباب وأهمها اني خائف ان تسمع الأحداث الغريبة مني ثم تغير نظرتها ومعاملتها معي وتصبح باردة بعد ماتظن انها بداية شيخوخة و لم اكن مستعد في فقدان ثقتها في نهائياً ، يجب ان اسكت حتى اجد حل لهذه المشكلة ! ، مسكت يدها وتسندت على الجدار ونهضت وأنا اردد باني رأيت طيف زوجتي وانصدمت وبررت لها انه شيء طبيعي ومتعود على رؤيته دائما بحجة اني لم استطع تخطي صدمة وفاتها حتى الان، وبعد ما شعرت انها صدقت ماذا قلت قررت ان اسألها من اجل التأكد من الذي رأيته قبل قليل وقلت :....

اين كنت اليوم الصباح ؟ ، بدأت تفرك فروة رأسها ثم قالت : ءءاا كنت هنا ،ارسلتني رئيسة الممرضين لعمل المكتب بحكم انه متكدس وقبل قليل انهيت عملي ومن غدا سأستعيد عملي السابق لأني لم اهضم شغل المكتب والأوراق وأصابتني بالغثيان ! ، ساءت ملامح وجهي أكثر دون أن أظهر لها شيء ودخلت غرفتي وتناولت أدويتي وداخلي يتآكل من كمية الأسئلة التي انهمرت متتابعة علي ، وجزمت بهذه اللحظة إن كل شيء حدث و يحدث وحتى الذي شهدته كان خارق للطبيعة ! .. طول تلك الليلة جالس على طرف سريري وأفكر ! ، ماذا يمكن أن

يكون ! ، ولماذا الآن تحديدا بدأت أسمع وأرى وأشهد هذه الأحداث رغم ان لي مدة طويلة هنا ، دائما أشياء كثيرة تحصل معهم ،كنت أقول او اعذرهم لانهم مصابون بالزهايمر ويتوهمون بأحداث وأشياء ليست موجودة، حاولت إيقاف ضغط الأسئلة وسحبت الغطاء ثم غطيت جسمي لكي أنام لعل وعسى تختفي ويعمّ الهدوء والسلام الداخلي المفقود من فترة طويلة ، بين الوعي واللاوعي ، لم اكن اعرف هل أنا أحلم أو أعلم أو حتى الإثنين سوى، بعد ماسمعت دقا متواصل على الباب ويفصل بينهم ثواني قليلة ، وكأنها نغمة لقطرات ماء تجمعت بمكان وصارت تسقط متتابعة على السطح وتنتج لنا صوتها المعروف ، لكن الصوت كان أقوى من انه يعود لطرق أصبع إنسان صغير ! ، نزعت الغطاء من فوقي بعد ما استوعبت أنه واقع واتجهت للباب وفتحته بتأني وبلحظة ! ، ارتطم ذلك الرأس المسبب بكل الطرق المتواصل وكان سيسقط لو ما لحقته ومسكته قبل أن يتساوى مع الأرض ، ارتميت بجانبه وحينها صحت تلك العجوز وكأنها طول المدة التي رأسها ينضرب بالباب كانت نائمة دون إحساس على نفسها ! ، بعد ما استوعبت مكانها الغريب نهضت بسرعة وهي تفرك مقدمة رأسها التي تورّم من أثر الضربة وقالت : أنا أين ! ، من اوصلني لهذا المكان !! ، عم الهدوء بيننا لثواني حتى ما بدأت تصحصح

وذكرت : أنا أسفة يا أدهم ، ممم لم أعرف كيف وصلت لـ هنا ، اااءءء و ليس بعادتي أن امشي اثناء النوم أبدا ! ، قربت لها وذكرت بعد ماتريقت : يا هديل لم تمشين فقط ، بل كنتي واقفة امام الباب ورأسك يضربه بشكل متتابع ! ، معقول لم تشعري بالألم والضرب ألم تشعر بقوّته ! ، توسعت عيونها ومسكت رأسها وصرخت : رأسي يا أدهم ساعدني لا استطيع تحمل الألم ! ، اشتد الوجع وزادت صرخاتها وترددت بالمكان كله حتى تجمعوا كل الناس حولها واستطاعوا الدكاترة المناوبين يسعفونها للمستشفى الكبير المتواجد بوسط المدينة ..

ولم يكن بمقدرتي العودة للنوم بحجة ان كل العجائز كانوا جالسين بالغرفة الكبيرة المتواجدة بنهاية الممر يمين غرفتي و المستيقظ منهم كان ينتظر خبر يطمأنه عن هديل والبقية لم يكونوا مهتمين ابدا ، عليهم من الله العوض .. جلست بجانبهم تكلم أحد الجالسين بعد ماكان الصمت مسيطر على المكان وذكر : هديل من الناس القدامى ومن أوائل الناس الذين سكنوا هنا ، أتمنى أن تكون بخير ويحفظ لها عقلها من الزوال ، أكملت تلك العجوز عنه والتي كانت تسكن الغرفة المجاورة لي ، ولما كنت أحتك فيها بحكم أن عقلها كان قد تلف قليل وذكرت : الليلة الماضية أثناء نومي مثل

أي يوم عادي ، صحيت على صوت طرق على الباب وكانت بنفس الحالة التي شهدها أدهم الليلة ، أعتقد ان هذا الشيء تسبب بخلل دماغي عندها ، عم صمت قليلا ثم أكملت بنبرة هادئة وعيونها موجهة لنقطة معينة على الأرض : لكنها أول ماصحيت كانت تردد اسم آية لأكثر من مرة ثم شعرت بتعب وتوجهت لغرفتها دون أن تنطق بحرف واحد !! ، عاد الصمت بيننا وصرت الاحظ عيون الحضور وهي تتحرك من الواضح أنهم يفكرون بالاسم الذي انذكر ، كنت سأتكلم بعد ما استنتجت شيء لكن سبقتني عجوز وذكرت : إما أحد من أهلها يملك الاسم هذا أو كانت تقصد آية التي انقتلت قبل عدة سنوات من هذا المكان ! ، اخخخ نفس الشيء الذي فكرت فيه ، هل كانت تقصد آية المقتولة ! ، قفز شخص ثاني بفضول وذكر : من هذه آية وماهي قصتها ؟ ، تكلمت انا قبل ان تتكلم العجوز وقلت : كانت موجودة هنا قبل أن تأتي أنت ولم تلحق عليها ، وقليل من الجالسين هنا يعرف قصتها ، ومن الأفضل أننا نكرّم مثواها وندعوا ان تنام في قبرها بسلام دون ان نتطرق للأشياء المؤلمة التي حدثت لها ، دعونا ندعي لهديل بالسلامة وعندما تعود ستخبرنا بالذي حدث لهاومن آية المقصودة التي تكلمت عنها ، وانا أظن، لا أنا اجزم أنه مجرد تشابه اسماء وإن هذا الاسم يعود لواحد من

أهلها وبدأت ترددد وتهلوس فيه مثل أغلبكم عندما يحن ويشتاق لعائلته ، قمت من مكاني وتوجهت لغرفتي تارك الكل ورائي يستغرب من تصرفي وانفعالي المفاجئ ..

ارتميت بثقل جسمي على السرير ، زادت الأمور تعقيد وغرابة وتداخلت ببعضها ، لا ينقصني إلا آية ! ، صدقت الرؤية بالنهاية وظهرت هي نفسها التي تراها هديل بأحلامها ! ، أغمضت عيوني اراجع تفكيري للخلف عندما كانت آية أحد سكان المكان وأكثرهم غموض وانطواء ، لا تخرج من غرفتها إلا نادرا ولا تتجمع أو تحتك مع احد ، سمعت في ذلك الوقت أنها فقدت عائلتها بالكامل بحادث سير وهي الوحيدة التي نجت منه ، كل الذي صار لها كان له أثر على عقلها ونتج خلل صغير بذكرياتها مما استطاعت ببساطة أنها تنسى اخر 15 سنة من حياتها ، المفروض هذا الشيء يكون مفيد بحكم أنها نست الحادث وكل مايتعلق بذلك اليوم المؤلم إلا أنها صارت مثل الطفلة تبحث عن صديقاتها وتسأل عنهم وكل يوم تقوم باحداث لا تنتهي بهذه الدار ، وكانوا جميع الدكاترة والممرضين يعانون منها ، ويجيدون راحتهم إلا عندما تنام بسبب المورفين الذي يحقنوه لها ، وسنة بعد سنة طفشت من كل الذي تفعله ولزمت غرفتها و رضت بالأمر الواقع

وإن المكان هذا هو بيتها ، الوحيدة التي تمكنت من تكوين صداقة معها هي هديل ، كانت تزورها بشكل يومي لغرفتها وتجلس عندها ساعات وتتكلم معها وتغير منها، ومع مرور الأيام صارت هي الدكتور والممرضة وحتى الأخت التي تساندها بكل ما تملكه بعد ما رفضت جميع الطاقم الطبي أنه يعتني بها ، وفي ليلة وعلى غير العادة ، لم تزر هديل صاحبتها كالعادة وانقطعت ولم تكن تزورها بشكل يومي ، طرأ لها ظرف صحي ، اضطرت تلك الممرضة الأنانية أنها تدخل وتقدم لها الرعاية الشاملة ذلك اليوم ، وكانت السبب في اثارة عصبية آية لما ذكرت لها أن هديل لن تأتيها بعد اليوم وأنها ستكون وحيدة حتى تموت ، وزادت على كلامها وذكرت : إما تتركيني أنا وزملائي الممرضين نقدم لك المساعدة أو تجلسين هنا حتى تموتين ! ، كان سبب مناسب لإثارة عصبية وغضب آية والتي بدورها بدأت تضرب الممرضة وتقذف عليها كل شيء تراه ، وبلحظة دفعتها الممرضة بقوة على الجدار هذا ما جعلها ترتطم بقوة وتتعرقل رجلها وتسقط على حافة الطاولة وتفقد وعيها ، بدأ الدم يتسرب من رأسها وسط نظرات الممرضة المصدومة ، و زادت الوضع احراج ففاضت روحها وماتت بعد ما نزفت حتى الموت ، تدخلوا الطاقم الطبي بعد كم

دقيقة وحاولوا يسعفونها لكن الطاقم تأخر ، وتلك الممرضة الخبيثة تم اعتقالها وحكموا عليها بالسجن المؤبد ..

وبعد ان عرفت هديل حزنت حزن شديد على موت صديقتها الوحيدة ومن ذلك اليوم وهي ليست بخير وتصرفاتها متغيرة و انعكس الذي صار على عقلها ، و كانت تلوم نفسها على موت آية وانها توفيت دون ان تكون بجانبها على الأقل .. عدت للواقع وقت ماسمعت صوت الممرضة سارة بخطواتها متجهة للقاعة الرئيسية ، قفزت من مكاني ولحقتها ، خففت من حركتي و التفتت من ناحيتي ثم ذكرت لكبار السن الواقفين حولها : هديل بخير واحتمال كبير أنها ستعود بيننا خلال اليومين القادمين ، فتحت فمي بإبتسامة باهتة ورجعت أدراجي لغرفتي ، مشى الوقت بطوله حتى جاء الليل وصار يغطي المكان ، وخلال هذه المدة كنت نائم ولا اشعر بأي شيء حولي ، صحيت على خطوات الممرضة سارة التي حفظتها عن ظهر قلب قادمة باتجاهي ، لم تكن عندي القدرة أنني أرتب شكلي وأجهز نفسي ككل مرة ، وكما يقول المثل " الذي يحبك من قلب تروق له بكل حالاتك ، وسيراك دائما أجمل شيء بعيونه " ، دخلت الغرفة مثل كل مرة دون ان تطرق على الباب ، ومن بين الخمول والكسل الذي

احتل جسدي استجمعت طاقتي مبتسما لها ، بادرتني الابتسامة وذكرت : وضعك لا يطمأن يا أدهم ، قل ماذا بك لكي أساعدك ، أريد استعادة صديقي القديم الذي إعتدت ضحكته وحتى وجوده كفيل بأنه يحيي المكان ، نهضت من سريري وجلست على السرير لما رأيتها منزلة رأسها و بحالة سيئة وقلت : انا بخير يا سارة ، وصدقيني بمجرد مارأيتك وسمعت صوتك ذهب من داخلي كل الهم ، أنت دوائي ومرهمي ، اقتربت من ناحيتي واعطتني الأدوية مبتسمة قليلا، عادت بجانب عربة الأدوية ، أخذت الدواء من على الطاولة وقلت : وانت ماذا بك ؟ ، تنهدت بهدوء ثم قالت : قلقت على حال الدار و من فيه ، لا اعرف ماذا يحدث هذه الفترة ! ، اشعر أن الجدران تضيق علينا وكاتمة أنفاسنا ، الوضع ليس طبيعي يا أدهم ، حتى حكاياتنا التي تغير مني وتخرجني من ضغط العمل فقدتها معك ، اقربت اليها وضميتها لصدري وذكرت : صدقيني فترة سيئه وتمر ، وتعود الحياة في هذه الدار مرة ثانية ، وقبل ان تخرج التفتت لي وقالت : وبالمناسبة يا أدهم هديل خرجت قبل قليل من المستشفى وهي الآن نائمة بغرفتها وبخير .. قشعريرة بجسمي ، اكتفيت بالسكوت وهو الوحيد الذي كان متاح امامي ، لم تكن لدي

الرغبة في الكلام أو الكتابة ككل مرة احزن فيها ، ناهيكم عن المطر الذي لم ينزل ولطّف الجو بحضوره ..

احسست بشيء اجتاح داخلي ، فجأة قررت الإطلاع للردهة وأتوجه للقاعة التي توقعت مايكون فيها أي احد هذا الوقت، بحجة انه موعد نوم جميع العجائز بعد لحظات ، مشيت بالممر أتخبط وعقلي متوقف كليا عن التفكير ، مشيت لآلة القهوة وحضرت كوبا ثم جلست على الأريكة القريبة من الشباك ، نظرة سريعة على المكان ... بعض كبار السن متوزعين بعشوائية وكل واحد فيهم يقوم بعمل ما ، ولا احد فيهم صاحي وعقله موجود لاتناقش مع احدهم ، صرت اتأمل الشباك ، الغابة الكثيفة ، اشتقت للمدينة الصاخبة والحركة فيها ، احسد اي شخص يسكن بأحد بيوتها الكثيرة والمختلفة الأشكال وحتى الأحجام ، كانت ذاكرتي تسرد لي أيام حلوة قضيتها مع ابنتي قبل مجيئي إلى هذا المكان ، ياترى ماذا حدث معها ، هل استطاعت أن تحمل وتنجب ولد كما كانت تحلم دائما، هل هي مستقرة مع زوجها الأناني الحقير ؟ ، والأهم من هذا كله هل هي سعيدة ومرتاحة داخليا دون ان تسأل عني طوال الفترة الطويلة ؟ ، دقت الساعة المعلقة على الجدار معلنة عن الثانية بعد منتصف الليل ، ومع

نفس الدقة مسحت دمعتي التي نزلت وصحيت من شرودي والتفيت للمكان ، كان فارغ تماما ليس به أحد ، اعتقد أن الكل لازم غرفته وقرر أن ينام ، والأمر يشملني أنا ، نهضت من مكاني بعد ما أخذت كوب القهوة و وضعته بمكانه المخصص ثم شعرت بالحكة في عيني فحككتها لكي استجمع رأسي ، وفي طريقي للغرفة توقفت على صوت مقبض باب أحد الغرف يدور بعشوائية بكل إتجاه ! ، الصوت كان يتزايد والحركة أصبحت سريعة ، أتبعت الصوت بحذر وبخطوات متزنة حتى ماتجمدت بمكاني لما رأيتها ! .. هديل! ، استطعت تمييزها من القماش الطبي المحيط بأعلى رأسها ، خرجت من غرفتها ومشت دون أن تلتفت حتى ! ، كنت أريد العودة لغرفتي وفكرت في أنها خرجت لتغير حالتها النفسية أو حتى تذهب للمطبخ وتأكل شيء كما كنت افعل وقت ما يجتاحني الجوع اخر الليل ، لكن مرت من جانب المطبخ ولم تدخله ! ، طريقة مشيتها غريبة وبشكل متعرج ورأسها يدور حول نفسه ، مشيت وراءها واتبعتها ، شعرت في أن الحالة الغريبة عادت لها الا و هي المشي اثناء النوم ، ولكي اتطمأن عليها اكثر ، كانت تتقدم بخطوتها بحركة بطيئة ، وكنت امشي وراءها ببطئ أيضا ، حتى وصلت لناحية الشرفة ودفعت الباب لم يكن مقفل ككل مرة وهذا الذي استغربت منه !

خرجت للخارج ووقفت قليلا ، الهواء الشديد كان الشيء الوحيد الذي يحرك كل جزء وقطعة فيها ، اقتربت لنهاية الشرفة وجلست تتأمل المنحدر ، وهذه الشرفة مطلة على الغابة وكان يتواجد تحتها بالضبط منحدر بعمق مئة متر تقريبا ، لمست الحائط ورفعت رجلها عن الأرض وبنفس الوقت كانت تتمتم بأغنية لم تكن واضحة لي ! ، ركضت ناحيتها وقبل ان ترفع رجلها الثانية وتقذف حالها في الغابة مسكتها وسحبتها لجهتي ! ، بلحظتها صحت من الحلم الذي كان يراودها وأول ما جاءت عيني بعينها للمرة الثانية سحبت جسمها للوراء وهي تصرخ بخوف وتحرك رأسها بعشوائية دون ان تنظر لي !! ، حاولت تهدئتها ، صوتها صار يرتفع أكثر ونياحها زاد ، ماكنت اريد ان أصحي سكان الدار هذه المرة بعد دون سبب ،تركت المصيبة لنفسي ، اقتربت ناحيتها ووضعت يدي على فمها مانع خروج الصوت ، هدأتها قائل لها: إن كل شيء سيكون بخير ، وللحظة استجابت لي ! ، وبدأت تبكي بفرط ماسكة يدي وتذكر : لن تدعني وشأني ، هي وعدتني انها ستترك كل سكان المبنى يعيشون الذي عاشته وأكثر، سوف تؤدي بحياة كل واحد فينا للهلاك ، ولن ترتاح حتى ترى جثث تملئ هذه الغابة ! ، شديت عليها أكثر حتى هدأت أخيرا بعد كم دقيقة ، رفعتها عن الأرض ومسكت يدها وتوجهنا لغرفتها

بهدوء ، ساعدتها كي تستلقي على السرير وجلست على الكرسي المقابل لها ،انتظر نومها حتى أطمئن عليها، حاولت التكلم اليها و أسألها عن الحاصل لكن ترددت أن افتح عليها باب بالويل فقفلته ، بعد مدة قصيرة وهي تغمض عين وتفتح الثانية تمتمت بكلام بصوتها المنخفض ، اقتربت حتى صرت بجانبها واتضح لي أنها تريد ماء ، اعطيتها الكوب الذي بجانب سريرها وأول ما ارتوت ذكرت : لا استطيع النوم دون أن أراها ، تتهمني بسبب موتها ! ، متعصبة علي قبل ان تموت أو قلقت مني ، كنت أحبها وأحب مجالستها وصارت من أقرب الناس لي بهذا المكان والوحيدة التي تفهمني قبل ان أتكلم ! ، لماذا تغيرت وصارت تريد ان تلحق بي الضرر ! ، أنا ما هو ذنبي ،ماذا فعلت ! ، دائما تأتيني في وقت النوم او لما انام وتغني في أذني محاولة جذبي للخارج ! ، كانت تستغل نقطة ضعفي بالأغنية التي كنت أغنيها لطفلي الصغير قبل ان ينام ، ومن خلالها جسدي ينصاع لها ولا استطيع ان اتحكم فيه أبدا ، شكرا لأنك لحقت بي يا أدهم قبل ان تقتلني ، سأبقى ممتنة لك لإنقاذي ..

ابتسمت بعد ماعرفت الحكاية واتضح لي أن السبب وراء كل شيء يصير هو آية ، أو روحها بمعنى أصح ، اختتمت جملتها

وذكرت بانكسار : لم اطلب مساعدة أو خدمة من أحد لكن سأطلبها منك أنت ، وأكملت كلامها : تستطيع ان تبقى بالغرفة معي للصبح؟ ، أنا خائفة ولا أشعر بالاطمئنان ، اخاف إن تعود وتقتلني ! ، لمست يدها وذكرت : لن يقتلك أحد أو حتى يقرب منك وأنا موجود ، ابقي مطمئنة يا هديل ، كل شيء سيكون بخير حتى حلول الصباح وحامل بين يديه يوم جديد ، وفعلا اتجهت للكرسي المقابل لها فجلست عليه ،صرت أنتظر عند رأسها حتى نامت واطمأننت عليها ، كلها دقائق حتى غلبني النوم ونمت .. يوم بعد يوم حتى عادت من خلالها الأمور لطبيعتها ، ولم نرى أي شيء خارق للطبيعة داخل الدار ، وقفت آية تأتيها بكوابيسها واستقرت حالة هديل والأهم من هذا كله ، كبرت علاقتنا أنا وهي وصرت كالأخ بجانبها وتحكي لي عن أيامها وأحكي لها أنا عن كل شيء يخصني ، اخيرا عادت الحياة تدب بالمكان من جديد ، اكثر من أسبوع مر دون أي حدث مريب يحصل ، وخلاله استطعت ان أكسب صديق أتكلم معه وقت ماتكون سارة مشغولة ، استطاعت هديل ان تخرج من دوامة العزلة وتنخرط مع الصاحي من كبار السن وتبني معهم علاقات ، والأهم من هذا كله عادت الأمطار تتساقط بغزارة هذه الأيام ، والجو اشتد برودة ، الشتاء كان بنهايته والجو متقلب بشكل كبير ، مايمنع عدم

الكتابة هذه الليلة تحت زخات المطر ، لدي مدة طويلة لم اكتب شيء ، لكن هذه المرة تكون الرسالة لابنتي ، بحيث لم اكتب لها الفترة الماضية ، كنت أكتب رسائل حب وغرام لسارة ، صرت اكتب واكتب ، حتى الجو هدأ بعد ماوضعت النقطة بنهاية مكتوبي ، اغلقت الرسالة ووضعتها داخل الظرف واتجهت لمكتب الدكتور ايوب وهو كان ساعي البريد الذي ينقل كل مكاتيبي ورسائل شوقي لابنتي ، خرجت من غرفتي ومشيت بذلك الممر حتى وصلت للدرج وصعدت للدور الثالث ، خطواتي كانت بطيئة و عظامي بدأت تثقل وتألمني ، اخخخ كبرت وصرت عجوز يا أدهم " قلتها بيني وبين نفسي وبلحظتها عيني لمعت بدمعة ولم تكن في الحسبان" ، اسرعت في مسحها قبل ان يراني احدهم. الممرات كلها كانت فارغة إلا الممرضين ، والكل مشغول بالأوراق والأدوية بين يديه ، وبأول غرفة على اليمين طرقت الباب بشكل أخفّ ، كررت طرقها مره ثانية أقوى ، لكن لا إجابة ، " يمكن لم يسمعني أو مشغول كعادته ؟ " قلتها بصوت خفيض وبعدها دفعت الباب باحترام وأنا اردد

دكتور ايوب .. دكتور ايوب أنت هنا..... ؟ ، المكان خالي ، كنت سأخرج وارجع ادراجي واعود بوقت ثاني ، لكن لو ارد ان

أكون مصدر إزعاج له وتقدمت للطاولة وضعت الورقة عليها وأنا اذكر : أكيد لما يراها سيعرف انها مني ويرسلها بنفسه للمدينة ككل مرة ، لكن قبل ان أخرج لفت إنتباهي أحد الرفوف كان مفتوح نصفه ، تقدمت له وكنت سأغلقه لكن ! ، فتحته بكامله لما رأيت رسالة اعرف غلافها جيدا ! ، سحبتها آخذا كل الرسائل الموجودة تحتها ، رسائلي القديمة ! ، يالله بعضها مر عليها أكثر من سنة ! ، معقول كان يكذب علي ولا يرسلهم لإبنتي ! ، أو انه ارسلها ! لكن ببساطة ما استقبلتهم ! ، يمكن حتى زوجها اللئيم له دور باللذي يحدث؟ ، كل شيء يجوز ، لكن الذي قهرني انه لم يعلمني بهذا ! ، يمكن انه خاف علي من الحزن وأن أتضايق لما اعرف ! ، لكن لو اخبرني أهون من أن أعيش بوسط أوهام و أكون متأمل في ان ابنتي وصلتها الرسائل تقرأهم وتبتسم ! ، تساؤلات كثيرة صارت تعبث بداخلي ، حتى ماقاطعني صوت الدكتور ايوب من ورائي وهو يقول : ءءءاا أنا آسف يا أدهم ، كل ماحاولت إرسالهم كانت تعود ثاني يوم ، حتى قررت زيارة ابنتك يوم ما واعرف منها السبب ، غضبت لما رأتني وطردتني وهي تذكر انها لا تريد أي شيء يأتي منك ابداً ، ولم ارد أخبارك ، الذي فيك يكفيك ..

كنت اسمع هذا الكلام من ورائي ، مسحت دموعي بكُم قميصي و التفت للرد عليه والصدمة !! ، المتواجد امام الباب ماكان الدكتور ايوب ! ، سارة !! كيف هذا ! ، تَرَيّثْتُ وأنا اذكر بخوف : اين الدكتور ايوب ياسارة ؟ ، مستحيل يختفي بهذه السرعة ! قبل ثواني كان يتكلم معي !! ، استنكرت كلامي وذكرت : لا يا أدهم لا أحد غيري من دقيقة !! ، ضرب البرق من نافذة الغرفة وأجبرت على الالتفات ناحيته ! ، إختل توازني ورميت يدي واستندت على الطاولة ! ، التفتت رقبتي لجهة الباب وسارة مرة ثانية... !!!!! ، لا يوجد أحد ،باستثناء الكهرباء التي انقطعت ثم عادت من جديد ، وأثناء لمعان مصباح المكتب ظهرت أمام الباب طيف زوجتي المخيف ! ، كانت تحدق في شخصي بنظراتها المريبة ،رجليها مرتفعة عن الأرض وتتحرك باتجاهي !! ، خانتني ارجلي بأكثر لحظة كنت احتاجهم فيها ، توقفت بمكاني وسقطت على الأرض ، حاولت ان اسحب جسمي الهزيل للخلف ، لكن حركتها كانت ضعف المجهود الذي ابذله ! ..

معصم يد مثلجه وُضع على كتفي وبدأ يضغط عليه قليلا، ناظرت لصاحبه وكانت زوجتي من ورائي لكن بهيئتها اللطيفة المعهودة المتبسمة ، كل الذي تذكرته قبل لا يغمى عليا جملتها وهي ترددها

: لاتخاف كل شيء سيكون بخير يا أدهم ، كل شيء سيكون بخير !! ..

أكثر من يد تلمس أطرافي وتهز جسمي بعشوائية ، استطيع الشعور بهم بوضوح لكن بدون أصوات ، الدنيا من حولي بيضاء وصوت طنين يتردد بداخل اذني ، ضربة مصوبة على خدي كفيلة بإنها تصحيني وترجعني للواقع ! ، انا أين ؟ ، قلتها بعد ماانهضت من الأرض وإتضح لي إني مازلت بغرفة الدكتور ايوب ! ، ضوء الكشاف تسلط بلحظة لداخل عيني ، كشرت وغمضتها متجاهل إضاءته القوية وبعدته بكف يدي وأنا اصرخ : ابعدو عني ابعدو عني ! ، اول ما إنطفئ النور بدأت اركز بملامح الأشخاص من حولي ! ، كان الدكتور ايوب وبجانبه ممرضتين مرتسمة على ملامحهم الذعر والخوف ، تكلم الدكتور وهو يأشر للممرضات : كل شيء تحت السيطرة ، هو بخير ومجرد غثيان بسيط ، وأثناء ما أمرهم بإنهم يجهزون الدواء المناسب وقفت من جانبه متجاهل صوته وهو يردد : توقف يا أدهم ، لازم ترتاح لا تتعب نفسك ، توقف ! ، تجاهلته وبخطوات سريعة نزلت وإتجهت للممر المؤدي للغرفة ، وببدايته سمعت صوت الممرضة سارة من وراي وهي تذكر : أدهم أنت بخير ؟ ، وبعد ماإقتربت لغرفتي وصادفت لحظتها

خروج هديل من غرفتها ، بنظرات مستنكرة لوضعي ولعجلتي وعرفت إنه يوجد شيء خاطئ يحدث ، دخلت الغرفة واقفلت الباب بقوة وسندت ظهري عليه وانفاسي تخرج بصعوبة ، بدأت ابكي وابكي وابكي بقهر وحرقة ، حتى مانزل جسدي وإنسدحت على الأرض وكملت أصيح ، تذكرت إبنتي وكم كنت محتاج لها بهذه اللحظة ، وتلاشت بثانية لما خُيّل لي طيف زوجتي امامي وبنفس الإبتسامة الهادئة ، لكنها بعيدة عني وملازمة الشباك ، مديت لها يدي على أمل إنها تقرب وأنام بين أحضانها ، وكل الذي قامت به استمرت تطالع فيا من بعيد لمدة بسيطة ثم تلاشت بلحظة وقت ما إنطرق الباب ! ، صرخت بصوتي : لا اريد أحد ، دعوني لوحدي ! ، كنت حاس إن الذي خلف الباب هي الممرضة سارة، لإنها الوحيدة القادرة تتعامل مع غضبي وعصبيتي وكل شيء يضايقني ، لكن ليس وقتك الآن ، ليس وقتك ياجميلتي ، اريد ان انفرد بنفسي لعلى وعسى أهدى وانسى الأشياء الغريبة مع إني اعرف إن هذه المصيبة ليس لها جواب واضح ، مرت ساعة كاملة ومازلت بمكاني ، اتأمل الشباك على أمل تظهر لي مرة ثانية ، محتاج اراها اكثر لكي اتطمإن ويهدى بالي ، ارجوك اظهري ، ارجوك ، ارجو.... ..

امتزجت صوت العصافير مع الحلم الذي كنت احلمه ، رغم إني لا اذكر ماذا حصل فيه إلا إنه اعطاني دافع افتح عيوني وانا مبتسم ، نهضت من الأرض وعيوني طاحت على الشباك وكان هناك بالضبط عصفور صغير مستقر و يغرد وهو يناظر لي وكأن لسانه يقول : قوم يا أدهم يوم جديد ، لا احد يعرف ماذا يحمل لك من مصائب ، المهم أن تبدأ يومك بعد ان تتأكد أنك طويت صفحة الأمس وتنساها كليا .. حكيت عيوني ثم تمغطت بمكاني ، يدي تألمني بحكم إني نمت عليها طول الليلة الماضية ، حركتها قليل لتستعيد حيويتها ومشيت لناحية الحمام بعد ما اقفلت الشباك من أثر الهواء البارد الذي ملأ الغرفة ،

وبعد ماصحصحت قربت للشباك لكي اتأمل الجو البديع وأشوف صديقي الجديد ، لكن مالقيته ، طار وتركني بحيرتي ، اخخخ ليت عندي جنحان وأستطيع ان اطير من بين همومي واتخلص منها واتركها ورائي بدون ما ألتفت ، ويمكن بعد اقدر اوصل لبيت بنتي وابني عشّي على نافذتها واراها بكل وقت .. عبس وجهي لما تذكرت ليلة امس فجأة ، وقعت بحيرة ودهشة جديدة ، لم اعرف ماذا افعل ، وكيف اتخلص من كمّ التهيُئات قبل لا تاخذ عقلي وتتركني بجنوني ، ما استفدت من كل الأفكار التي طرأت داخلي ،

زادت حيرتي ، وبلحظة تذكرت هديل ! ، هي الحل ومفتاح نجاتي والذي ممكن يخلصني من هذه الأمور كلها ، ذهبت من الغرفة ، واول مإلتف لجهة باب غرفتها ، لمحتها جالسة على الكراسي المتواجدة بالممر مع المهندس محمد والواضح إنها بسعادة وفرحة من ضحكتها الي تردد صداها بالممر ، الكل كان مستغرب وأولهم انا ، ماكنا متعودين نلمحها حتى تبتسم لكن كيف وهي تضحك من أعماق قلبها ؟ ، ماهان علي اعكر مزاجها ويومها وأشغلها معي ، أدرت ظهري وسحبت جسدي قاصد المطعم ، وقبل ادخل المكان بأقل من متر ، ظهرت الممرضة سارة من امامي وماسكة بيدها كوب قهوة وأول ماشافتني ابتسمت ثم ذكرت : اووه كنت محضرة لك هذه القهوة لغرفتك لكي تشربها وتروّق بعد أحداث أمس ونتكلم قليلا قبل لا ان يأتيك شخص للزيارة ! ، عقدت حاجبي بعد ما أخذت الكوب من يدها وقلت : زائر ؟ ، وبضحكة : ياترى من هذا الشخص ، صراحة لا اعرف كيف هو شعور أول زيارة ، مسكتني من يدي وأخذتني ناحية الصالة وهي تذكر بضحكة : انا أعلم إنه اول زائر يأتيك هنا وعلى هذا يجب تعليمك بعض التكتيكات ، تعال معي ..

وفي طريقنا كانت ضحكاتنا وحديثنا تملأ المكان ، من فترة طويلة مافرحت مثل هذه الفرحة ، ابتسمت بوجه سارة للمرة الأخيرة وانا اقول: شكرا لأنك استطعتي ان تفرحني وازلتي كل همومي ، أنتي فريدة وصديقة لاتشرى حتى بالذهب ياسارة ، انحرجت وأومأت براسها والتزمت الصمت لفترة ثم ذكرت : صدقني هذا لن يفرحك اكثر من الشيء الذي ستراه بمكتب الإدارة ! ، عقدت حاجبي وخففت بمشيتي وتعدتني هي بخطوات حتى طرقت باب الإدارة والتفتت لي وأشرت بيدها لداخل بعد مافتحت الباب : تفضل ادخل يا أدهم ، تقدمت بخطوات متزنة ، القلق يحيط بي من كل زاوية ، كان شخص لطالما انتظرت زيارته من فترة طويلة ! ، معقول بعد كل هذه السنين التي مضت الآن فصلت بيني وبينها خطوات بسيطة ! ، غمضت عيوني وأخذت نفس طويل ودخلت ! ، حضرة المديرة جالسة على كرسيها بإبتسامة لم اعهدها وعلى الكرسي المقابل وقفت من مكانها أول مارأتني ! ، تمعنت النظر فيها ! ، مستحيل الذي يحدث ! ، ابنتي ! ، خديجة !! ، ركضت اتجاهي وضمتني وهي تبكي وتشد يديها : ابي سامحني ماكان بيدي ان اقطعك كل هذه المدة ، سامحني ارجوك ! ، نزلت دمعتي على خدي فحضنتها وشديت عليها بقوة وصرت

ابكي ! ، أصيح بكثر شوقي لها ، كثر الدقائق والساعات والأيام التي ماكنت بجانبها ، وطول ماكانت بين ذراعي و

وانامتلتزم السكوت ، وهي تصرخ وتطلب مني السماح ! ، " ليس مهم يابنتي إني اسامحك، إن الحياة رجعت تدب بداخلي لحظة مالامستك واحسست بوجودك من جديد ، لو تنقبض روحي وتفيض للسماء بهذه اللحظة انا راضي ومبسوط أنني رأيتك يا غاليتي قبل ان أموت ، من أول ماتركتك والخوف ملازمني ، خائف أن اموت وما اسمع صوتك أو اراك مره ثانية ، والان الرب استجاب لي واستطعت التمعن بوجهك الطفولي مثل أيام قبل " ، بعدت عني ومسحت دموعها و حملت حوزتها ثم ذكرت : ذهبنا يا ابي ، انا اتيت اخذك من هنا واعوضك عن الفترة الطويلة التي انقضت بغيابك ، لا اريد ان اضيّع وقت اكثر من الذي مضى ، التفت للمديرة وعلامات الاستغراب تحيط بي ، رأيتها تبتسم وتومئ براسها بمعنى أن كل شيء تم وكل الذي عليك تفعل تمسك بيديها وتخرج من هذا المكان الآن ، توجهت نظراتي لسارة وبدورها لم تستطع تمسك دموعها وقت مارأت مشاعرنا وكانت تبكي ! ، تذكرت لما كانت تقول لي : اريد ان تكون بخير وسعيد يا أدهم ودائما ادعي لك تعود تعيش مع ابنتك وتكون اسعد

ناس ، اتت من ناحيتي وحضنتني وهي تذكر : مبروك يا صديقي العزيز ، استجاب الرب لأدعيتي وأكرمني ورأيت هذا اليوم ،الذي سيتخلد بداخلي للأبد ..

في تلك اللحظة كنت احمل هما واحدا قبل ان اترك هذا المكان الذي اعتدت عليه وصار ملجئي وبيتي الثاني وقلت : خديجة ! ، زوجك ماذا يكون موقفه .... ، قاطعتني بعد ماكشرت عن أنيابها وقالت : لاتذكر سيرة الحقير ، حرمني منك وكان يمنع علي الزيارة ، وقررت اطلقه واسلب منه ولدي وحتى ثروته بعد ان تورط مع عصابة وقبضوا عليه الشرطة ، وعرفت أنه شخص دنيئ وقذر ، وأكملت : لايهمك يا ابي سنعيش انا وانت وحفيدك لوحدنا ، وعلى فكرة حفيدك ينتظرك بالسيارة الآن ليتعرف عليك ، واليوم عيد ميلاده الأول وقررت انه لن يفوتك عيده الأول أو كل أعياده القادمه .. يالله حفيد ! ، معقول كل هذا واقع ! ، يارب اتمنى ان لا يكون حلم مثل باقي الأحلام الي شهدتها طول الفترة الماضية ! ، لكن الذي يختلف عنها ان هذه المرة الحلم كان حلو وراضي فيه حتى لو ماكان حقيقي ، ابتسمت الممرضة سارة وكأنها عرفت ماذا يدور داخلي وذكرت : اشغر بما اشعره يا أدهم واريد ان اقول لك ان كل هذا حقيقي ، اتمنى لك حياة

سعيدة وجديدة ، وأكملت وهي تذكر : وايضا لن اتركك وسأزورك حتى في بيتك الجديد انتظر ! ، " اخخخ يا سارة لن تعرفي ان مكانك بقلبي موجود و لن يتغير ابد " ، قربت لها وقلت : اكيد ياهند كل ماطفّشت تعالي الي، ضحكنا كلنا وخرجت من المكتب متجه للسيارة بعد ماحملت كل الأغراض قبل ان اترك الدار ، ذهبت ناحية غرفة شخص اخير ماودعته ، طرقت الباب اكثر من مرة لكن لا توجد أي اجابة ، لفيت المقبض ودخلت لكن الغرفة فارغة كليا ، صوت ابنتي من ورائي وهي تقول : يلا يا ابي تأخرنا ، انجبرت ان اتركها بدون ما اودعها ووعدت نفسي أني سازورها بأقرب وقت ، وبداخل السيارة كنت امسك حفيدي واحضنه والفرحة تحتل المكان، و التفت لآخر مرة ناحية الدار ورأيتها ، نعم هديل تقف عند الباب ماسكة كوب القهوة المعتاد وتأشر لي وتبتسم ، بادلتها الإبتسامة واشرت لها بيدي ، تحركت السيارة وغادرت المكان حتى اختفت تلك الدار عن الأنظار ، اعتدلت بجلستي وقبلت حفيدي وتنهدت وذكرت بيني وبين نفسي : انتهى الكابوس المزعج يا أدهم ، انتهى كل شيء ..

ختاما:

وحيدون ومعزولون ويعصف بهم الاكتئاب.. عندما يغدر الأبناء والزمن بكبار السن.....

أمرنا الإسلام بمراعاة كبار السن وذكرهم في القرآن الكريم فقال تعالى "ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة" صدق الله العظيم، وهنا يخبرنا الله سبحانه وتعالى كم يكون الإنسان عند بلوغ سنة في الكبر، وكيف يكون ضعيفًا ويجب علينا في الإسلام أن نرحم هذا الضعف ونحترمه ووردت العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تُبيّن فضل كبير السن، وأنّ الخير كلّه مع الأكابر، والبركة مع كبار السن، ولا يزداد المؤمن في عمره إلّا كان خيراً له، ويجدر بالذكر أنّ الإسلام عدّ البر والإحسان إلى كبار السن أحد المكارم العظيمة، وأحد أعظم الأسباب التي تقود إلى التيسير والبركة، وتمحو الفتن والبلايا، وتقود إلى حدوث الخير والبركات المتتالية في الدنيا والآخرة، حيث يقول نبينا الكريم صلّى الله عليه وسلّم: (هل تُنصرونَ وتُرزقون إلَّا بضعفائكم)

تم بحمد الله وحفظه..